كلمة معالي الشيخ وزير الأوقاف والشؤون الدينية
في افتتاح برنامج التواصل بين الأديان التابع جامعة كمبردج .

أيها السادة الأفاضل ... أيها الأخوة:

عندما تسلمتُ دعوة البروفيسور ديفيد فورد لحضور هذه المناسبة ، رأيتُ من واجب في مفتتح تعاوُننا التقدم ببعض الملاحظات المبدئية واقتراحات الآليات ، لكي يكون حوارنا مثمراً ، ولكي نتمكن من تجاوز هذه المرحلة الخطيرة بالسلام النفسي الضروري للقدرة على المتابعة وعلى بلوغ الأهداف. لقد أثارت لدينا مبادرة البروفيسور ديفيد فورد اهتماماً وتفاؤلاً واستحساناً. فقد جاء إلى مسقط بدعوة من وزارة الأوقاف والشؤون الدينية وألقى محاضرةً في جامع السلطان قابوس الأكبر ، ضنمها بذكر نقاط وبنود ما سماه فيها بعد: "بيان مسقط" للحوار بين الديانات الإبراهيمية وإننا وكما سبق القول ـ إذ ندعم لهذا البيان ، ونعتبره مؤسساً لنقاشٍ وتطوير للعلاقة ؛ نرجو أن يكون بفضل مساعي البروفيسور فورد بادرة خيرٍ وعملٍ فكري ومنهجي لتحسين العلاقة بين الأديان الإبراهيمية.

إن الذي يبدو لي أنّ المرحلة خطيرةٌ لسببين: الظروف الخارجية غير الملائمة ، والتي انتشرت فيها عناوينُ سوء العلاقات مثل صراع الحضارات ، والخطر الأخضر والسببُ الثاني وصولُ أربعة عقودٍ من التواصل إلى أُفقٍ مسدودٍ لضعف الإرادة من جهة ، وللأخطاء التي وقعت في البرامج والأهداف.

إنّ أولَ ما ينبغي التأكيدُ عليه في مجال الأهداف هو أنّ المقصود بلوغ مرحلة التعارف فالتراحُم. أمّا التعارف فقد حدده الله سبحانه وتعالى هدفاً للعلاقات بين البشر المختلفين في الخلق و المختلفين في العقائد والعادات والأعراف ؛ وذلك في قوله تعالى: {يا أيها الناسُ إنا خلقناكم من ذكرٍ و أنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم} فهناك الاختلاف في الخلقة (أي الذكورة والأنوثة) ، وهناك الاختلاف في التنظيم الاجتماعي (أي الشعوب والقبائل). ومع ذلك أو بسبب ذلك فإنّ الهدف ينبغي أن يكونَ تجاوز النزاعات الناجمة عن الاختلاف هو "التعارف" والتعارفُ ثلاثُ خطوات: المعرفة في الفهم فالاعتراف. والمعرفةُ تعني التعرف على الأخر بموضوعيةٍ

وتجردٍ ومسؤولية ، كما تعني التعرفُ على ذاتيه وطرائقه في التفكير والتصرف ومصالحه. ولا فصْل بين المعرفة والفهم لكنّ في الفهم جانباً فاعلاً وهو التعاطف وإرادة التقارب ، ويبلغ التعاطف درجته القُصوى بالاعتراف الإيجابي بالاختلاف والمضي باتجاهه وليس من الممكن في إنسانية الإنسان أن يتنازل المرءُ عن ذاتيته مهما بلغ شغفه بالآخر أو تعاطفه معه. بيد أنّ الاعتراف بالاختلاف وبمشروعية آخرة الآخر هو أمرٌ كبيرٌ يسمو بإنسانية الإنسان.

والواقع أن عملية التعارف القرآنية سوءٌ في أبعادها الفردية أو الجماعية ، ما جرت دراستها وتفهم أبعادها ومقتضياتها من جانب المسلمين ومن جانب غيرهم ويرجعُ ذلك إلى الظروف غير الملائمة التي سادت العلاقات بين الأُمُم في القرن الأخير ، والظروف غير الملائمة التي سادت علاقات المسلمين بالغرب على مدى قرنين من الزمان. فسبب الافتقار إلى التعارف أو استهداف بلوغه ساد التغالُب بحيث صار عسيراً على الطرفين التصرف خارج علاقات الغلبة ، ثم سيطر المتطرفون أو المتشددون من الطرفين فتعسرت القدرة على التدخُل فضلاً عن اجتراح المعرفة والاعتراف.

وإذا كان الاعتراف عمليةً زاخرة من المعرفة والفهم والتفهُم والاعتراف فإن الدرجة الأعلى منه أو نتيجته إنما هي الرحمة ، أو ما سماه البروفيسور فورد في محاضرته بعُمان البركة "Blessing" ، يقول الله عز وجل {وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين} ويقول النبي صلوات الله وسلامُهُ عليه: "إنما أنا رحمةٌ مُهداة" وهكذا فإنّ ذروة المعرفة أو التعارف والتفهم إنما هي الرحمة التي تبلغهم بإنسانية الإنسان أبعاداً شاسعةً وغنيةًٌ يستحيلُ مع بلوغها النزاعُ أو التخاصُم والواضح أنّ المقصود بالتراحم هو العلائق بين الأفراد بالدرجة الأولى ، لكنه يمكنُ أن يصل بالإصرار والمتابعة والإرادة القوية للمحبة إلى أن يكون إطاراً أخلاقياً للعلاقات بين الأديان والثقافات والأُمم. فالتعارفُ والاعتراف حقٌ والتراحم فضيلةٌ وواجب.

بيد أنّ هذين الهدفين (أي التعارُف والتراحم) ، يقتضيان الانطلاق من جانب المؤمنين ، وأهل الديانات الإبراهيمية من مبدأين اثنين حددهما القرآنُ الكريم في خطابه لأهل الكتاب:{قل يا أهل الكتاب تعالوا إل كلمةٍ سواء بيننا وبينكم آلاّ نعبد إلاّ الله ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقل

اشهدوا بأنا مُسلمون} يتضمن هذا النداء القرآن الشامل عدة مصطلحات أو مفاتيح: الكلمة السواء ، وعبادة الله وحده ، ورفض التربب لغير الله ، والتزام إسلام الوجه لله ، إنْ رفض الآخرون الشراكة على أساس هذه المبادئ . فالكلمة السواءُ تحدد المنهج: الالتزام الدقيق بالاستقامة والندية والعدالة في مُخاطبة الآخر واعتباره. وعبادة الله وحده تعني التوحد في الإنسانية المسؤولية أمام الذات الإلهية الواحدة. ورفض الاستيلاء أو الاستلاب الديني هو نتيجةٌ للالتزام بوحدانية الخلق والقدرة والربوبية لكنْ حتى لو رفض أهل الكتاب اللقاء على أساس هذه المبادئ فإنّ ذلك لا يكون مدعاة للعداء أو التخاصم ، بل أنّ المطلوب في هذه الحالة المصارحة بإسلام الوجه لله ، والإصرار على نهج التعارف والتفاهم والتراحم.

إن نهج التعارف والتراحم هو نهجٌ إنسانيٌ شاملٌ ، وخطابٌ لبني البشر جميعاً. لكنّ القرآن الكريم يطمحُ إلى أن تقود الدياناتُ الإبراهيمية البشرية باتجاه التعارف والتراحُم بسبب المشتركات الكبيرة التي تجمعها ، على الكلمة السواء ، والوحدانية ، وإنكار التربب لغير الله ، ولذا فإنّ التوافق الواعي على ذلك حرى أن يخدم أبناء الديانات الإبراهيمية والبشر جميعاً وإنما الأمر في هل نملكُ نحن أهلُ الإيمان المبادرة ، أو لا نملكها؟ ذلك أن الكلمة السواء والوحدانية هما أقربُ الطرق إلى نهج التعارف والتراحم.

والواقع أنّ العلاقات بين أهل الديانات الإبراهيمية شهدت مراحل انخفاض ونزاعاتٍ وإخفاق. وكان التربب ، أو الدعاء الغلبة والسيطرة هو العلةً الرئيسية في عدم الالتزام بالكلمة السواء فيما بيننا ، فكيف بدعوة البشرية إلى التعارف والتراحم. وأذكر أنه عندما هدمت طالبان عام 1999م تمثالي بوذا التاريخيين بالباميان بأفغانستان ؛ أنّ الدالاي لاما زعيم بُوذيين التبت قال: إنّ المسيحيين والمسلمين ، عبر القرون الماضية ، وهم الذين سادوا العالم كله ، ما سلكوا فيما بينهم ، ولاتجاه الأديان والثقافات الأخرى ، مسلك الاعتراف والعدالة وإنما كان همهم دائماً الاستيلاء والغلبة والسيطرة العنيفة!.

لقد ساد التأزم العلاقات بين المسلمين والمسحيين في العقدين الأخيرين وبخاصةٍ بين البروتستانت والمسلمين ويرجع ذلك إلى أمرين اثنين: تفاقم بعض المشكلات السياسية ذات الجوانب الدينية والثقافية والرمزية مثل قضية فلسطين ، وأوضاع الجاليات الإسلامية بالغرب. ومن جهةٍ أُخرى

سواء نظرة عامة سلبية تجاه الإسلام ، قابلها بعض المسلمين بالسلب والعنف أيضاً.
وعلى مدى السنوات العشر الماضية ، تابعت الأمر عبر نقاشاتٍ كثيرة مع قادة الفكر والعمل في الغرب والشرق. ونتيجة المراجعة والتأمل والنقاش اقترحت نهجاً وآلياتٍ للتصحيح واستعادة المسيرة عبر مدخل أخلاقيات الدين ، وفي ثلاث عملياتٍ فكرية هي: العقل والعدل والأخلاق ، إن التعامل العلمي مع القرآن الكريم يكونُ إمّا بالتفسير أي الفهم المباشر أو التأويل أي الفهم غير المباشر ولا شك أنّ العمليات الفكرية الأخلاقية التي ذكرتها (العقل والعدل والأخلاق) أصلها التأويلي إنما هو النصوص المقدسة في الديانات الإبراهيمية ، وعطفاً على هذا الإدراك أردْتُ أن تكون هذه الخطوات هي المنهج والآليات ، كما سبق أن تحدثنا عن الأهداف والمبادئ فنكون في كل الحالات ملتزمين بأصول الديانات الإبراهيمية.وفي غمرة هذه المبادرة للتصحيح والانطلاق من جديد ، أصدرنا مجلة التسامح التي صدر منها حتى الآن ستةٌ وعشرون مجلداً للتسامُح بالفعل والإجراء والمراجعات النقدية ، وتوضيح المفاهيم ، ومكافحة الأوهام كما أننا في وزارة الأوقاف والشؤون الدينية بسلطنة عُمان نظمنا موسماً ثقافياً سنوياً في السنوات الثماني الماضية ، دعونا إليه زهاء المائة مفكّر ومحاضر بمعدل عشرة كل عام ، لمناقشة قضايا الاختلاف وقيم التسامح والنهوض ، ومن الغرب الديني والسياسي والاقتصادي.
لقد قصدنا بالعقل إجراء المراجعات للمفاهيم والأهداف والمصالح ، بعقلنة المُشكلات ، وإدارتها ، واقتراح التحديدات والمخارج من المآزق ، والعمل على توضيح سُبُل الحوار المجدي والبناء واستكشاف الوسائط والوسائل الجديدة والمتجددة للمعرفة وللتعامل يقال إنّ المعرفة تحرر وهي كذلك بالفعل لكنها ينبغي أن تقترن بالنقد وبالمراجعة وبإعادة تعريف المفاهيم وتحديدها بالملكات النقدية، لدينا مفكران مُسلمان معاصران في القرن التاسع الميلادي هما المحاسبي (-243هـ) ، والكندي (-252هـ) أمّا الكندي فاعتنق وجهة نظر أرسطو في ماهية العقل ووظائفه فقال إنه جوهرٌ مفرد مهمته الإدراك المتعالي والحكم على الأشياء وأمّا المحاسبي فذهب إلى أن العقل هو غريزةٌ أو نورٌ يزيدُ ويقوى بالتعلم والتجارب فبالمعرفة والتعلم والاكتساب

والمراجعات نستطيع دائماً أن نراكم وأن وضع الأمور في مواضعها الصحيحة ، ما دامت أهدافُ التعارف والتراحم نصب أعيننا.
أمّا الخطوة الثانية أو المقارنة والمقاربة ضمن هذا التوجه فهي العدل. ونقصد بالعدْل الانصاف في الحكم على الأمور وتقديرها ، كما نقصد العدل في السلوك والتصرف فإذا اعتبرنا العقل في هذه المنظومة قيمةً أخلاقيةً وإنسانية ، تتسم بالتجريد ، فإنّ العدل هو أداةُ العقل في تصويب النظر ، وفي الدفع إلى تصرفٍ فكريّ أو عمليّ معُين.
وتأتي الخطوة الثالثة وهي الأخلاق ، لتصلنا من جهة بأصل الوحدانية وعدم التربُب ، ومن جهةٍ أُخرى بهدفي التعارف والتراحم.
إنّ من فوائد هذا النهج الثلاثي الخطوات أنه يصلنا من جهةٍ بلاهوت الديانات الإبراهيمية ، ومن جهةٍ أُخرى بالثقافات والديانات الأخرى ، فلا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، ولا نتجاهل القيمة الكبرى للتعارف والتراحم. ويوصلنا ذلك دونما مشقةٍ كبيرةٍ في الفكر والتصرف إلى سبيل استباق الخيرات أو التنافس الحر الإيجابي عليها وإليها ، كما قال الله عز وجل في القرآن الكريم: {فاستبقوا الخيرات ...} وأهمية ذلك أنّ الخيرات الإلهية إنما هي قيمٌ حرةٌ يمكن أن يبلغها الإبراهيمي وغير الإبراهيمي.

أيها الإخوة ... أيها السادة:
يقال إنّ عالم القرن الواحد والعشرين ، في النصف الأول منه على الأقل ، هو عالم الدين.ومن المتدينين من يحكم على القرنين التاسع والعشرين أنهما كان عالمي النزاعات الثائرة على الدين والأخلاق . لكن الذي نراه في العقد الأخير أنّ الأديان تستخدم أيضاً في إيقاد النزاعات. وقد قال البروفيسور هانس كينغ في التسعينات من القرن الماضي إنّ سلام العالم معلق على السلام بين الأديان ، ولا سلام بين الأديان إلاّ بالحوار فيما بينها.
وقد أردت من وراء هذه الملاحظات المساعدة على اجتراح نهجٍ جديد في الحوار بين الأديان والثقافات ، يخدم في مجالات سلام العالم وأمْنه واستقراره.
ونحن مقبلون على تعاوُنٍ مع برنامج الحوار بين الأديان بجامعة كمبردج من خلال الكرسي الذي أهداه حضرة صاحب الجلالة السلطان قابوس بن

سعيد المعظم ـ حفظه الله ورعاه ـ للجامعة. وسيكون نص إعلان مسقط من بين أول ما نتعاون في مناقشته ودعم بنوده وفهمها وأملي أن تُسهم هذه الملاحظاتُ أيضاً في تسهيل التعاوُن والحوار.

شكراً لاستماعكم. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.